عندما خسرنا بناء «القصة» بسبب الجهاد

علي الصراف
كاتب عراقي

"مجاهد" آخر قتل نائبا في البرلمان البريطاني خلال اجتماع مع ناخبيه طعنا بالسكين. فتبارك الربط من جديد بين الإسلام والإرهاب، وارتفع عُري "الجهاد" كفضيحة للإسلام.

المحاولات الغربية لربط مفهوم "الجهاد" بالإرهاب كرست لنفسها نجاحا جديدا. وفي مسعى للهرب ما يزال الكثير من قادة الرأي في العالم الإسلامي يتحججون بالقول إن "الجهاد الأكبر" هو "جهاد النفس"، وهو ما يعني أن المسلم ليس ملزما، إلى تلك الدرجة، بـ"الجهاد الأصغر" طالما أن جهاده ضد دوافع النفس هو "الأكبر".

وهذا كلامٌ فارغ.

نعم، الجهاد من أجل التقويم والإصلاح هو"الأكبر"، إنما في زمن السلم، وعندما لا يكون هناك تهديد من الخارج، وعندما لا يكون هناك من يعمل على تقويض حياة المسلمين وإبادتهم في أوطانهم بقوة السلاح.

ولأن "لكل مقام مقال"، فلم يحصل ولا لمرة واحدة على امتداد التاريخ الإسلامي برمته أن وُضع "الجهاد الأكبر" في تعارض مع مقاومة الظلم والعدوان!

فالأولويات أولويات. والتلاعب بها، ووضعها في تعارض بين إحداها والأخرى ليس سوى وسيلة مبتذلة للوقوف، ضمنا، في صف الظالمين والغزاة.

السؤال ليس ما إذا كان "الجهاد" ضروريا في الإسلام، بل ماذا يبقى من الإسلام من دون جهاد؟

انظر إلى أقدس معاني الإسلام وسترى أنه بدأ ككفاح ضد الظلم والقهر والعدوان. وتحوّل إلى "كفاح مسلح" في اللحظة التي أشهر فيها الظالمون السلاح.

وانظر إلى منظومة القيم والأخلاقيات التي جاء بها وأرساها الإسلام، وسترى أنه كان، وما يزال، ثورة تحررية من أعظم الثورات في تاريخ البشرية وأكثرها استمرارية. إنه ثورة ضد الطغاة، ضد انعدام المساواة، ضد الاستغلال، ضد التمييز العنصري وضد الاستعباد.

وهذه الثورة لم تكن أبدا "حركة سلمية". ولم تنظر إلى الشر على أنه أمر يمكن التعايش معه. والسلاح كان دائما في المقدمة.

هذا هو الإسلام. إنه دينُ مقاومةٍ باليد قبل اللسان!

أما مسلمو "أضعف الإيمان" فإنهم آخر من يحق لهم أن يقرروا مجرى الأولويات!

الجهاد "الأكبر" لا يعود ذا معنى إذا وُضع كذريعة للحيلولة دون مقاومة الغزاة. وعندما يُتخذ كغطاء لمنع المقاومة ولحماية العدوان فإنه يتحول إلى كفر صريح.

شيخ المجاهدين عبدالقادر الجزائري لم يضع "الجهاد الأكبر" كعقبة للحيلولة دون المقاومة بالسلاح. ولا فعل عمر المختار.

وسواء نجح الغرب في الربط بين الجهاد والإرهاب، حتى صار قادتنا يبحثون عن ذرائع للتبرؤ منه، فنحن نعرف أن المسافة بين الجهاد والإرهاب أبعد من المسافة بين الأرض والسماء.

إذا كان الإرهابُ (تعريفا) هو "قتل المدنيين لتحقيق أغراض سياسية"، فالجهاد هو "قتال وتضحية بالنفس ضد الظلم والعدوان". وهو يتوجه ضد مَنْ يحملون السلاح لا ضد مدنيين عُزل.

الغزاة يقتلون الأبرياء ويتمنون لو ننحدر إلى ما يرتكبون ليكسبوا عذراً وذريعة، ولكن رباط الجهاد الحقيقي هو مقاومة الظلم، لا صنع ظلم مثله.

والمسافة لا تحتاج بصرًا لتدرك أنها أبعد من المسافة بين الأرض والسماء فعلا.

لم يكن الجهاد عدوانا ضد مدنيين. والمسلمون لم يأخذوا المدنيين بجريرة العيش في الطرف الآخر مثلما يفعل الغزاة عادة.

العيش في مكة في ظل آلهة قريش لم يكن بحد ذاته جريمة بالنسبة إلى جيش المسلمين. وحتى كفرة قريش ظلوا آمنين عندما لجأوا إلى دورهم أو الكعبة أو دار أبي سفيان!

فكيف إذا كان اليهود والمسيحيون ليسوا كفّارا في نظر الإسلام؟ بل كيف إذا كانوا في نظر القرآن مسلمين أيضا؟

قال تعالى "قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ".

وقال تعالى "وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ".

يحسن الاعتراف أن هناك بيننا من عُمي على أبصارهم حتى تحولوا، باسم الجهاد، إلى إرهابيين يختصون بقتل الأبرياء، ولكن هؤلاء لا يمتّون إلى الجهاد بصلة، ولا حتى للإسلام. لأنهم في الحالتين لا يقتفون الأثر الإنساني والتحرري (في آن معا) الذي يشكل الطبيعة الجوهرية للإسلام وللجهاد باسمه.

ولكن ليس كل الجهاد إسلاما.

لقد عرفت النضاليات الثورية في الماضي القريب أنواعا من الجهاد العلماني. وبفضلها حققت حركات الاستقلال العربية منجزات الاستقلال ضد الدول الاستعمارية، بينما كان إسلاميون مثل "الإخوان" يتواطؤون مع الاستعمار ويتلقون دعمه.

ولئن انتهى بعض تلك النضاليات إلى السلطة لتهترئ فيها، فإن نضاليات مقاومة أخرى نشأت على ضفاف مساعي التحرير، فالظلم عندنا يأتي بمقاومته معه.

وقد حدث أن أخلت فصائل المقاومة العلمانية (الفلسطينية منها بوجه خاص) مكانها لفصائل إسلامية ليس بسبب فشل مشروعها الثوري، بل بسبب فشلها هي بالذات كمنظمات.

ويستطيع المرء أن يزعم أن تخلي هذا المنظمات عن قيم النضال وأخلاقياته كان واحدا من أهم دوافع الفشل.

وبتحول الثوريات إلى دكتاتوريات، والنزعات التحررية القومية إلى نزاعات لا تحررية ولا قومية، فقد كان الانهيار حتميا.

وهو حالٌ سرعان ما كررته "الجهاديات" الإسلامية المزيفة، بتوجهها إلى إيذاء الأبرياء، فانتهت إلى إفلاس أخلاقي وسياسي مروع.

وبالأمس القريب، دلت مقاومة الاحتلال الأميركي للعراق على أن الإسلام يمكن أن ينهض كقوة محركة للنضال التحرري، حتى بين العلمانيين أنفسهم، عندما يستعيد مكانته الثورية كقوة تغيير، ويحافظ على أخلاقياته، ويكرس جهده لمواجهة الظلم المسلح بالسلاح.

وعلى هذا الأساس، يمكن للثوريين أن يكونوا مجاهدين من دون إسلامية تستضحل العقول.

جيفارا كان جهاديا من أرفع الجهاديين العلمانيين. ومات شهيدا كبقية الشهداء. حركته المناهضة للاستعمار كانت تكفي لتجعل منه خيرا من ثلاثة أرباع شيوخ الدين وآياته "العظمى" الذين تحولوا إلى رجال إفتاء لصالح الفساد وتغطية الجريمة أو التعاون مع الاحتلال.

صلة الوصل الحاسمة في كل جهاد هي قيمه وأخلاقياته التحررية. من دون هذه الصلة، فإنه ليس سوى جريمة عارية.

رجال الحرية في كل مكان ليسوا بحاجة إلى الإسلام لكي يكونوا ثوريين وينتهوا كشهداء. ولكن الأمر هناك مجرد خيار أيديولوجي، وفردي في الكثير من الأحوال. ولكنه عندنا "فرض عين"، لا خيار فيه.

والحال، فإن معضلتنا أصعب، ومقاومتنا أوجب. لأن الجهادَ شرطٌ من شروط الإسلام. إنه فريضة على المسلم. ويكون أوجب من كل الفرائض الأخرى، عندما يصبح الظلمُ شريعةً سائدة بالسلاح، وعندما يطأ أرضه الغزاة.

إسلام من دون مقاومة ليس بإسلام.

إسلام من دون سيف، حركة بوذية بالأحرى. ولكن ضد مَنْ؟ وما هي معاييره الأخلاقية؟ هذا هو السؤال.

والمعيار الأخلاقي الأول إنما يقول "لا تقتل مَنْ لا يحمل سلاحا، حتى ولو كان جنديا".

قتلُ من لا يحمل السلاح عملٌ جبان، وضيع ورخيص، بالمطلق.

يمكن للجهاد أن يوجد من دون إسلام. ولكن، لا يوجد إسلام من دون جهاد. وفي المسافة بين "الجهاد الأكبر" و"الجهاد الأصغر" فإن الأولويات أولويات، وهذه لا يقررها أصحاب "أضعف الإيمان".

سوى أن الإسلامية الضحلة هي التي أضاعت الطريق، فهي عندما بررت للفساد بداعي الاقتصار على "الجهاد الأكبر"، إنما وفرت الذريعة لمن هم أكثر ضحالة لكي ينقلبوا بجهادهم فيكون جريمة عارية ضد الأبرياء من الناس.

لم تفعل جماعات الجهاد الإسلامي في فلسطين إلا هذا في الواقع. تركوا جنود الاحتلال وصاروا يفجرون حافلات الركاب أو المقاهي، حتى شوّهت المقصد كله، وتحولت القضية الفلسطينية إلى إرهاب، ووفرت الأدوات للاحتلال لكي يعيد بناء القصة.

الجهاد "الأكبر" قيم وأخلاق.

و"الأصغر" مثله تماما. سوى أن جماعات الإرهاب عندنا ضيّعت الاثنين عندما ضيّعت القيم والأخلاق لتحل محلها الوحشية والعنف الأعمى.

داعش والقاعدة كانا هما ثمرة ذلك الضياع. أطلقا على جرائمهما تسمية "الجهاد"، فتوفر للظالمين المبرر لكي يعيدوا بناء "القصة" ضد الإسلام.

وخسارة "القصة" لا تعني بقاء الظلم فحسب. إنها تعني خسارة كل شيء. حتى صار من الأولى بالمحتلين والغزاة، أن يقولوا "شكرا" لأهل هذا "الجهاد"، كبيره وصغيره على حد سواء.

التنمية قبل السياسة في مصر

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

تحتل ملفات التنمية والمشروعات القومية مقدمة المشهد العام في مصر، وأصبحت فئات عديدة مشغولة بما يتم تحقيقه على الأرض من طرقات وجسور ومدن واستصلاح في الأراضي الصحراوية، وما سيتم إنجازه لاحقا، ما جعل البعض يقولون لا مكان للسياسة في مصر واستشهدوا بتركيز وسائل الإعلام على التنمية وتوابعها وغياب دور الأحزاب في الشارع واشتباكها مع الهموم الأخرى للمصريين.

يحتاج حديث التنمية على حساب السياسة تفكيكا ليتسنى فهم الحالة المصرية التي كانت التفاعلات بين القوى المختلفة جزءا أساسيا فيها، من جانب النظام الحاكم وتوجهاته أو معارضيه، فالسياسة نهر طويل يجدف في مياهه كل طرف بالطريقة التي تعكس رؤيته أمام المواطنين.

طغت التنمية ومفرداتها على الخطاب العام في مصر ضمن عملية لم تأت صدفة، وجاءت نتيجة تخطيط مقصود، ولم تشهد الكثير من المشروعات التي تظهر فجأة حوارا سياسيا أو يسمع عنها الناس إلا بعد أن يروها مكتملة في الواقع.

توحي الكثير من التصورات الرسمية بأن إخضاع مشروعات التنمية للحوار المجتمعي سيكون معطلا لها وقد يدخلها في عراقيل جراء غياب المعلومات عنها قبل تشييدها، خاصة أن النظام الحاكم يتصرف وكأنه في سباق مع الزمن، ويحرص على تدشين أكبر عدد منها خلال فترة وجيزة.

تتباين مبررات عدم الحوار بين تحاشي الاستغراق في مناقشات لا طائل من ورائها وبين إشراف المؤسسة العسكرية على غالبيتها ما يفرض جانبا من السرية، لكنه نقل البعد السياسي إلى منصات التواصل الاجتماعي.

غاب الجدل السياسي حول التنمية عن المشهد العام بحكم الضعف الذي أصاب الأحزاب والكسل الذي يعتري الإعلام والتضييق على الحريات، غير أنه لم يغب في تقييم المراقبين والمتابعين لأن المشروعات الاقتصادية والاجتماعية تنطوي على مكونات سياسية وتعبر عن توجهات النظام حيال حل المشكلات المتراكمة، والآليات التي ترتكن عليها الجمهورية الجديدة والمشروعات المترامية أحد ملامحها الرئيسية.

يشغل التركيز على التنمية وسائل الإعلام التي تدور في فلك الدولة ويحتل مساحة كبيرة في النقاش وفقا لمردوداتها على المواطنين، ويشغل أيضا شرائح أخرى من منطلقات سياسية في حدود الهامش المتاح أمامها والوسائل التي يمكن التعبير من خلالها عن رؤاهم لكثير من المشروعات وتقييمها من منظور سياسي وتنموي.

لم تلغ التنمية السياسة تماما في مصر، ربما قلصتها في الواقع، لكن أنعشتها في العالم الافتراضي الفترة الماضية، وبدلا من الانخراط في مصير الأحزاب والمعارك التقليدية مع الحكومة التي اختفت تقريبا، تدور حوارات على منصات متعددة باتت تشكل منتدى عاما يستقطب النخبة والسياسيين حول التنمية وجدواها وإشكالاتها، وترويج لافت من المعارضة بأنها تخدم فئة معينة قبل أن يستفيد منها عموم المصريين، وكلها أحاديث تدخل في صميم السياسة التي لا تطيقها الحكومة.

نزعت التصرفات التي قامت بها الدولة الكثير من الدسم الذي اتسمت به الساحة السياسية في مصر عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير 2011 لصالح التنمية، لأن النظام الحاكم يعتقد أن هذه معركة محورية، ونجح في جذب شرائح إليها أصبحت تشكل جبهة قوية تمنحه دفعة لمواصلة طريق التنمية التي تجعل مصر أكثر تحضرا.

فوسط ارتفاع معدلات الفقر وعدم الاستقرار الأمني يبدو لا معنى للسياسة، وفي خضم الترهل الذي أصاب البنية التحتية على مدار سنوات طويلة لا مجال لحوارات تمنح الأعلى صوتا دورا أكبر في الشارع، ومع تزايد التهديدات الخارجية أضحت السياسة في نظر النظام المصري رفاهية غير مطلوبة وسلبياتها تفوق إيجابياتها.

تمثل التنمية عصب الرؤية التي يبني النظام عليها معظم إجراءاته، وما كان لكثير من المشروعات أن ترى النور لو أنها عرضت على الأحزاب لإبداء الرأي أو خضعت لفحص من قوى سياسية مختلفة، لذلك فجزء أصيل في خطة التضييق العام أن تتحرك الأدوات التنفيذية بحرية وبلا قيود من المعارضة يمكن أن تربكها.

أدى الجفاف السياسي إلى نتيجتين متصادمتين، الأولى أن النظام حقق رغبته في العمل بمفرده وعبر أدوات يحكم السيطرة عليها وتمكن من تسريع وتيرة البناء، والثانية أنه حرم من النقاش العام ومشاركات حزبية قد يستفيد منها في رؤية الجانب الآخر لما يقوم به في مجال التنمية ما يعزز حضوره في الوجدان العام ولا يخصم منه.

فتحت تجربة السنوات التالية لثورة الخامس والعشرين من يناير عيني الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي على كثير من الأزمات التي تعاني منها البلاد، وتكونت لديه قناعة أشبه بأن التنمية ضد السياسة، أو العكس، وربما تمثل تهديدا للأمن القومي، الأمر الذي يفسر دواعي التصحر في المشهد العام ويفك لغز التركيز على التنمية التي تحتاجها مصر.

لن يتقبل مصريون هذا التصحر ما لم يكن مصحوبا بإنجازات على الأرض تحطم إرادة المعارضة التي استمد بعضها قوته من علاقته بقوى خارجية، ووفر انتشار الكثير من المشروعات في ربوع البلاد وتطور العلاقات الخارجية مع الشرق والغرب فرصة للنظام لعدم الاعتداد بما يتعرض له من تكسير سياسي، وأسهمت الحصيلة التي وصل إليها في عدم التوقف عن التنمية وتحويلها إلى قاموس في وسائل الإعلام.

واجه هذا القاموس الفراغ السياسي، فعندما تتحدث جماعة الإخوان عن تضييق في الحريات واعتقالات وانتهاكات في حقوق الإنسان يتم الرد عليها بما أدخله النظام من إصلاحات، ويتم وضع مقارنة بين ما يقوم به السيسي وبين التخريب الذي قامت به الجماعة في مصر واستعدادها لهدمها إذا كان ذلك سوف يقود إلى عودتها إلى الحكم.

ضاعفت المقارنات في هذا الاتجاه مكانة النظام المصري وشوهت صورة الإخوان ورفعت الأقنعة من على وجهها، وكشفت التنمية الكثير من أكاذيب الجماعة التي درجت على تحريض المواطنين بحجة أن البلاد تعيش فوق بركان من الأزمات.

جر النظام المصري معارضيه، وفي مقدمتهم الإخوان، ليكون الخلاف معهم في مجال التنمية وليس حول السياسة وأدبيات الحكم، فالبعض ينتقدون كثرة المشروعات ويقصرون حديثهم عن الفائدة وعدم الفائدة، وهي نقطة قوة تحسب للنظام الحاكم.

ففي النهاية له بصمات على الأرض لا أحد ينكرها، ويعمل لأجل البناء والإصلاح، بكلام آخر تمكن من تحويل الأنظار نحو السياسة بمعناها التقليدي وما تنطوي عليه من تراشقات إلى معناها التنموي، ولا يحمل الخلاف تشكيكا في عملية التطوير التي يقودها وينصب التباين في التفاصيل والأولويات، وهو ما يمثل ميزة نسبية كبيرة له.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk